

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة إبراهيم

﴿الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾

﴿الرَّ﴾ سبق بيان معناها، فارجع إليه عند تفسير أول سورة البقرة.

﴿كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن، وذلك ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ بما فيه من الهدى، والدعوة إليه، والتربية على تعاليمه ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الكثيرة كالضلال، والشهوات، والشرك ﴿إِلَى النُّورِ﴾ أي: نور الإسلام وهديه. كل ذلك ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتوفيقه، وتيسيره، وهدايته.

نعم، إلى هذا النور، إلى الإسلام، ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يمنع هديه أحد ﴿الْحَمِيدِ﴾ المحمود في شرعه، وهديه، ودينه.

نعم إلى هذا النور، إلى الإسلام، إلى صراط..

﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَيُؤْتِي لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾

﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقا، وملكا، وتصرفا.

وإن إلها كهذا عزيز، حميد، غني. لهو أولى بالطاعة، وأحق بالإيمان به، والخضوع له، واتباع نبيه.

والنعيم لمن أطاعه، وآمن به، وخضع له، واتبع نبيه ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ﴾ به، الذين لا يطيعونه، ولا يؤمنون به، ولا يخضعون له ولا يتبعون نبيه ﴿مِّنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ لهم يوم القيامة.

هؤلاء الكافرون به الذين لا يطيعونه، ولا يخضعون له، ولا يتبعون نبيه هم:

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٣)
أي: يتصفون بصفات ثلاث:

الأولى: أنهم يفضلون ﴿الَّذِينَ عَلَى الْآخِرَةِ﴾؛ فيعملون لها، ويتركون الآخرة وراء ظهورهم نسيًا منسيًا.

الثانية: أنهم ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وعن دينه، وعن الدعوة إليه، إما بالتحريف، أو بالتخويف، أو بالمنع.

الثالثة: أنهم يريدون دعوة الله على هواهم ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: منحرفة عن المنهج الذي أراده الله.

﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، ولن يصلوا مما يريدون إلى شيء؛ لأن دعوة الله مستقيمة في نفسها، لا يضرها - بإذن الله - من خالفها، إلا من خذلها.

ومن نعم الله تعالى أنه كما يقول رب العزة:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤)

يعني: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ قبلك يا محمد ﴿مِنْ رَّسُولٍ﴾ من إخوانك المرسلين ﴿إِلَّا﴾ متحدثًا ﴿بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ أي: بلغتهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ رسالة الله؛ ويفهموه.

﴿فَيُضِلَّ اللَّهُ﴾ بعد هذا البيان ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ الضلال ويحبه ويهواه، ﴿وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ﴾ الهداية ويحبها ويختارها.

وكل ذلك بإذنه ومشيئته ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في هذا وذاك.

وهذا واحد من الرسل الذين أرسلناهم بلسان قومهم، ولغتهم. يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

يقول الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في معنى هذه الآية: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب؛ لتخرج الناس كلهم، وتدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

ثم قال له ربه - أي: لموسى - ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بنعمه عليهم، من إخراجهم من أسر فرعون وقهره لهم، ومن إنجائهم من الغرق إلى غير ذلك من النعم الكثيرة، حيث ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: فيما حدث لبني إسرائيل ﴿لَآيَةً﴾ وعبر وعظات ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على البلاء ﴿شَكُورٍ﴾ على العطايا، يتعظ بها، ويفيد منها، لو كان ممن يعقلون..

ثم يقول ربنا للمصطفى ﷺ:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

يعني: ﴿و﴾ اذكر يا محمد لقومك لعلهم يعتبرون ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ بني إسرائيل ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ واشكروه ﴿إِذْ أَنْجَاكُمْ﴾ سبحانه ونعالي ﴿مِّنْ﴾ عذاب ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾ حينما كانوا ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي: يذيقونكم وينزلون بكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أسوأ ألوانه، وأشد أنواعه، كما كانوا ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ لتعجيزكم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ لخدمتهم وإذلالكم.

﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ﴾ الذي كان يحدث لكم ﴿بَلَاءٌ﴾ واختبار لكم ﴿مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: هل ترضون بالذل والهوان، أو تنشدون الحرية مع الإيمان..؟ وهل تشكرون على النعمة والسراء، أو تكفرون على النعمة والضراء؟

واذكر أيضًا يا محمد لقومك ما قاله موسى لقومه، حيث قال:

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ لِيَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ وَلِيَنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ﴾ أي: وعدكم ربكم بقوله: ﴿لِيَنْ شَكَرْتُمْ﴾ نعمي عليكم ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ إنعاماً وفضلاً ﴿وَلِيَنْ كَفَرْتُمْ﴾ أي: جحدتم هذه النعم، ولم تشكروني عليها بمزيد الطاعة ﴿إِنَّ عَذَابِي﴾ لكم في هذه الحالة ﴿لَشَدِيدٌ﴾ الوقع والإيلام.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

يعني: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لهم أيضاً ﴿إِنَّ تَكْفُرُوا﴾ بنعم الله عليكم يا بني إسرائيل، ولا تشكروه عليها ﴿أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ معكم في هذا الكفران، ﴿فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم وشكرهم ﴿حَمِيدٌ﴾ أي: محمود في ذاته، لا يحتاج إلى حمد من ينعم عليهم من عبيده.

وبعد أن ذكر الله طرفاً من قصة موسى؛ ليتعظ بها كفار مكة، أتبع ذلك بقصص بعض الأمم التي عاندت رسلها، وكفرت بربها، لينتبه كفار مكة إلى ما حدث منهم ولهم؛ وليحذروا مصيرهم، حيث يقول لهم مباشرة على لسان نبيه ﷺ:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

يعني: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يا كفار مكة ﴿نَبُؤُا﴾ أي: خبر ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من الأمم السابقة مثل ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ ﴿وَعَادٍ﴾ قوم هود عليه السلام و﴿ثَمُودَ﴾ قوم صالح عليه السلام.

﴿و﴾ كذلك نبأ ﴿الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وهم أمم كثيرة ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾.

هؤلاء جميعاً ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ من الله على دين التوحيد، وعبادة الله.
﴿وَ﴾ ما كان من هذه الأمم، إلا أنهم: ﴿رَدُّوْا أَيْدِيَهُمْ فِيْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ بالتكذيب،
بدل من أن يمدوها إلى رسلهم بالمبايعة والتصديق والمتابعة.

﴿وَقَالُوا﴾ لهم بعناد ومكابرة، وجهل ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ من
التوحيد، وعبادة الله.

﴿وَإِنَّا﴾ كذلك ﴿لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ لا تطمئن إليه النفس، ولا
يستريح له البال. وهنا..

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ
لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
نُرِيدُونَ أَن تَصَدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

أي: ﴿قَالَتْ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمْ﴾ متعجبين من مقالتهن، ومنكرين عليهن صدورها
منهن: ﴿أَفِى اللَّهِ شَكٌّ﴾ وأدلة وجوده وألوهيته كثيرة في الوجود، ظاهرة للعيان.

ومن هذه الأدلة الظاهرة أنه ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما، وهذا أمر لا
يدعيه أحد أبداً، وهو سبحانه ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان به، وتوحيده، وعبادته ﴿لِيَغْفِرَ
لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ إذ آمنت.

وكذلك ﴿وَيُخْرِجَكُم﴾ بلا عذاب، أي: يجعلكم تعيشون في سلام وأمان ﴿إِلَىٰ
أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو الموت.

أتدرون ماذا قالت لهم أقوامهم؟ ﴿قَالُوا﴾ لهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا ميزة لكم علينا، فكيف نتبعكم ونحن مثلكم سواء بسواء؟ بل أنتم
فقط ﴿نُرِيدُونَ أَن تَصَدُّونَا﴾ وتمنعونا ﴿عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.. على كل
حال ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بعلامة واضحة، وآية بينة على نبوتكم ونحن
نتبعكم.

وهنا أجابت الرسل عليهم بكل وضوح، حيث:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١)

والمعنى: أن الرسل لم تنكر بشريتها، ولم تدع ما ليس لها، ولكن ردوا الفضل لله، واعترفوا بالنعمة لله ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ﴾ بالنبوة والرسالة ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وكنا نحن من هؤلاء الذين تفضل عليهم بها.

ولذلك: ولأن النبوة فضل من الله ﴿مَا كَانَ لَنَا﴾ وما نستطيع ﴿أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ أي: بآية تقترحون علينا أن نأتي بها ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومشيتته. ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ويثقوا به في كل أحوالهم، ويصبروا في معاداتكم، ونحن كذلك نتوكل عليه، ونحتمي به سبحانه. ثم قالوا:

﴿وَمَا لَنَا إِلَّا أَنْ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١٢)

أي: ولم لا ﴿نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ ونثق فيه، ونحتمي به ﴿وَقَدْ﴾ فعل بنا ما يدعوننا إلى هذا التوكل عليه، ومن ذلك أنه ﴿هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ أي: الطرق التي نعرفه سبحانه بها.

﴿و﴾ على كل حال ﴿لَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ به من الأقوال والأفعال، ولننتوكل عليه، ونحتمي به ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: من أراد التوكل الحقيقي، والاعتماد الراسخ فعلى الله تعالى، لا على غيره.

ولمّا وصل الأمر إلى هذا الحد الذي انقطعت فيه حبال الكافرين في عنادهم مع الرسل، وعجزوا عن النقاش، ورأوا صلابة هؤلاء الرسل الدعاة في مواقفهم، لجئوا إلى التهديد والتخويف.

يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

يعني: لجأ الطغاة إلى آلات بطشهم وظلمهم، كما هي عادتهم عند عجزهم عن الحوار والمناقشة، حيث قالوا ﴿لِرُسُلِهِمْ﴾ مهديين: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا﴾ أي: بلادنا، وننفيكم ونبعدكم عنها، ما دتم مصريين على دعوتكم ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي: في ديننا، وتركون دعوتكم.

وأمام هذا التهديد ورغبة البطش، وما دام الأنبياء قد بلغوا رسالتهم وأدوا مهمتهم، تدخلت العناية الإلهية.. ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ بما يشتهم، ويرد عنهم كيد الظالمين قائلاً لهم: ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ونحفظكم ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ﴾ أي: البلاد ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾. و﴿ذَٰلِكَ﴾ الاستخلاف ﴿لِمَن﴾ تحققت فيه صفتان:

الأولى: ﴿خَافَ مَقَامِي﴾ أي: خاف من الوقوف أمام ربه في يوم الحساب.
الثانية: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: خاف وعيدي بالعذاب، للكافرين والعصاة.
وبهذا حمي وطيس الخلاف بين الفريقين، وانقطع جبل النقاش.

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

أي: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ جميعاً، يعني: استنصروا وطلب كل فريق النصر على الفريق الآخر، وكانت النتيجة أنه ﴿خَابَ﴾ الكافرون، حيث إن الله يخذل كلَّ ﴿جَبَّارٍ﴾ متجبر في نفسه، وعلى غيره ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق، متكبر عليه.

ومع خيبة كل جبار عنيد!! فإنه:

﴿مِّنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ۖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ ۖ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۚ وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۖ ﴿١٧﴾﴾

يعني: ﴿مِّنْ وَرَآئِهِ﴾ أي: أمام هذا الكافر الجبار العنيد ﴿جَهَنَّمُ﴾ تنتظره، ليعذب ويخلد فيها.. ﴿وَيُسْقَى﴾ وهو فيها ﴿مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ وهو ما يسيل من جلود أهل النار ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ يشربه جرعة جرعة ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ﴾ وهو يبلعه لقبحه وثنته وكرهاته.

﴿و﴾ في ذات الوقت ﴿يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: أسبابه وآلامه لو كان سيموت، ﴿و﴾ لكن ﴿مَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ حتى يستريح من هذه الآلام. ﴿وَمِنْ وَرَآئِهِ﴾ أي: ينتظره ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أشد مما هو فيه.

إن الذي قرأناه هو مثل الذين كفروا، فما مثل أعمالهم التي نراها، وقد نبهر بها؟ يجيب ربنا قائلًا:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الصَّلَٰلُ الْبَعِيدُ ۖ ﴿١٨﴾﴾
أي: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ هو ما تلوناه عليكم.

أما مثل أعمالهم، فهي ﴿كَرَمَادٍ﴾ حمله الهواء و ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ وذلك ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ بذر هذا الرماد وفرقه في كل ناحية، حتى أصبحوا لا يقدرُونَ على جمعه مرة ثانية.

وهكذا ثواب أعمالهم التي عملوها في الدنيا من صلة الأرحام، والعطف على الفقراء.. إلخ ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة على الحصول ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من ثواب ما عملوا ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يفيدهم.

ورحم الله شاعر البؤس حينما اقتبس هذا المعنى وصاغه في هذه الأبيات التي صور بها حاله. قائلًا:

إِنْ حَظِي كَدَقِيْقٌ بَيْنَ شَوْكَ نَثْرُوهُ
ثُمَّ قَالُوا الْحَفَاةُ يَوْمَ رِيْحٍ أَجْمَعُوهُ
صَعِبَ الْأَمْرُ عَلَيْهِمْ قَالَ قَوْمٌ أَتْرَكُوهُ
إِنْ مِنْ أَشَقَّاهِ رَبِّي كَيْفَ أَنْتُمْ تَسْعُدُوهُ
ثم يقول ربنا عز وجل على ضياع ثواب أعمال الكافرين:

﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

ويخاطب ربنا كل أحد فيقول:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنِّي أَلَلَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ
بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

يعني: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الإنسان ﴿أَنِّي أَلَلَّهُ﴾ سبحانه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ لغاية وحكمة، ولم يخلقهما عبثاً.. فيدفعك هذا إلى الإيمان به،
وتوحيده، وعبادته.

﴿إِنْ يَشَأْ﴾ سبحانه ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ بعدكم بالموت، أو الإهلاك؛ إن لم تؤمنوا،
وتوحدوا، وتطيعوا ﴿وَيَأْتِ﴾ بدلاً منكم ﴿بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يفعلون ذلك ﴿وَمَا
ذَلِكَ﴾ الإعدام والمجيء بالخلق الجديد ﴿بِعَزِيزٍ﴾ على الله تعالى.

ثم يحدثنا ربنا، ويعرض علينا مشهداً من مشاهد يوم القيامة، فيقول جل جلاله:

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ
أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سُوءًا
عَلَيْنَا أَجْرًا عَنْ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

أي: وبرزت الخلائق كلها لله في يوم القيامة، لا يستترهم شيء، ولا تخفى على الله
منهم خافية. ويدور هذا الحوار بين الكفار وبعضهم البعض.

يقول تعالى: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ في الرأي، وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾
عليهم وعلى عبادة الله، واتباع الرسل: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: تابعين لكم، نفعل ما

تريدون، ونطيعكم فيما تأمرون به، ونحن نُعَذِّبُ الْآنَ بِسَبَبِ هَذِهِ الطَّاعَةِ لَكُمْ.
﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ﴾ ومبعدون ﴿عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ هذا الذي ينزل بنا
﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ ولو يسيراً؟ ﴿قَالُوا﴾ أي: الذين استكبروا؛ جواباً لهم.. اسكتوا عنا،
فنحن نعذب مثلكم، و﴿لَوْ هَدَيْنَا اللَّهَ﴾ إلى طريق النجاة من العذاب
﴿لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ إليه.

ولكن، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ وعليكم ﴿أَجْزَعْنَا﴾ من العذاب ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ عليه ﴿مَا
لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أي: مهرب من هذا العذاب.

ومن المشاهد كذلك أنه بعد أن يدخل المؤمنون الجنة، ويزج بالكافرين في النار،
يقف إبليس عليه لعنة الله خطيباً في الكافرين؛ ليزيدهم حزناً على حزن وحسرة على
حسرة. يصور ذلك قوله تعالى:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا
تُؤْمِنُونِي وَلَوْ مَوْأَا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ
بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢)

أي: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ أيضاً ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وفصل بين الخلائق، ودخل أهل
الجنة الجنة، وأهل النار النار!! قال للكافرين: مبكنا ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾ خيراً إن
أمتم به، ووحدتموه، وعبدتموه، وكان وعده ﴿وَعَدَ الْحَقِّ﴾ الذي لا خلف فيه وأما أنا،
فـ: ﴿وَعَدْتُكُمْ﴾ خيراً إن لم تؤمنوا، وتوحدوا الله، وتطيعوه، وكان وعدي كاذباً
﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ وضيعتكم، ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: قوة أرغمكم
بها على اتباعي ومطاوعتي حين دعوتكم ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ فقط بوسوستي
﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد الدعوة.

وعلى هذا، ﴿فَلَا تُؤْمِنُونِي﴾ على خيبتكم، وضياعكم، وعذابكم، ﴿و﴾ لكن
﴿لَوْ مَوْأَا أَنفُسَكُمْ﴾ فإن الذنب ذنبكم؛ حيث إنكم اتبعتموني على الباطل بمجرد
دعوتي لكم، واعلموا جيداً أنه ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثكم، ولا بمنقذكم
﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ كذلك، من عذاب الله.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾ اليوم، وتبرأت من عبادتكم لي، ومطاوعتكم لوسوستي، كما كفرت ﴿بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ مع الله، في عبادتكم. وقد ظلمتم أنفسكم بهذا الذي فعلتموه، و﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. لما شرح ربنا بعض أحوال الكفار الأشقياء، أتبع ذلك ببيان مصير المؤمنين السعداء، جعلنا الله وإياكم منهم، فقال:

﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّيهِمْ فِيهَا سَلَّمَ﴾ ﴿٢٣﴾

أي: ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: أدخلتهم الملائكة ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ينعمون بها حيث ساروا فيها، وحيث أقاموا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً، لا يُحَوَّلُونَ عنها، ولا يزولون منها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ كل ذلك من إدخال الملائكة لهم، والخلود فيها ﴿يُحَيِّيهِمْ فِيهَا﴾ من الله لهم، ومن الملائكة، وفيما بينهم ﴿سَلَّمَ﴾.

ثم ضرب الله مثلاً للكلمة الطيبة التي تدخل صاحبها الجنة، فقال عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ لَأَعْلَاهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾

يعني: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم ﴿كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ أي: مثلاً للكلمة الطيبة، وهي «لا إله إلا الله»؟ إن كنت لا تعلم، فاعلم أن مثلها ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ راسخ، لا يهتز، ولا يتزعزع ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ عال مرتفع، يزهو بشموخه وعزته.

وهذه الشجرة ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ ثمارها التي ينتفع بها، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وتيسيره، وتكوينه لها.

﴿و﴾ هكذا ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ لَأَعْلَاهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ الموضحة ﴿لِلنَّاسِ لَأَعْلَاهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيفهمون؛ فيزدادون إيماناً.

وبعد هذا المثل أتبع ربنا في آياته ضرب مثل آخر للكلمة الخبيثة التي تدخل صاحبها النار، فقال جل وعلا:

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (٢٦)

أي: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي: كلمة الشرك والكفر والضلال، مثل ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ لا أصل لها، ولا ثمر، ولا نفع منها ﴿اجْتُثَّتْ﴾ قطعت ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ بسهولة؛ حيث ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي: أصل، أو جذور، أو ثبات. وهكذا كلمة الكفر لا أصل لها في الفطرة البشرية، ولا قرار لها في النفس الإنسانية الصافية، ولا بركة فيها لأحد.

ثم يعقب ربنا على هذين المثالين بقوله عز وجل:

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧)

يعني: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ﴾ بمشيئته ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ وهو قول لا إله إلا الله، ويديمهم عليه ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لا يتزعزعون فيه، ولا يتحولون عنه ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: في القبر، وهو بداية مراحل الدار الآخرة، يلقنون الجواب، ويمكنون من الصواب. هذا ﴿و﴾ من جهة أخرى ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ بمشيئته، فلا يهديهم إلى الحق، ولا يوفقهم إليه.

﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ﴾ في هذا وهذا ﴿مَا يَشَاءُ﴾ لا يسأل عما يفعل، ولا اعتراض عليه لا في تثبيت المؤمنين، ولا في إضلال الظالمين.

ثم يتعجب الله من أفاعيل الكافرين، التي لا تصدر عن له أدنى وعي وإدراك، فيقول جل جلاله:

﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا فَذَسَّلْنَاهمْ وَلَهُمُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٨)

يعني: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ﴾ أي: تنظر أيها العاقل المتدبر ﴿إِلَى الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: غيروا ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أي: بدل من أن يشكروا الله على نعمه كفروا به سبحانه، وغيروا شريعته، ولم يعملوا بتعاليمه.

﴿و﴾ بذلك ﴿أَحْلُوا قَوْمَهُمْ﴾ يعني: أسكنوا أتباعهم ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾. ولكن، ما دار البوار هذه؟ إنها:

﴿جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا وَيُسُّ الْقَرَارُ﴾ (٢٩)

أي: ﴿جَهَنَّمُ﴾ هي دار القرار، التي يقيمون فيها مع أتباعهم، ويستقرون. ﴿يَصَلُّونَهَا﴾ يدخلونها، وهم يحترقون ﴿و﴾ حقًا ﴿يُسُّ الْقَرَارُ﴾ هذا ﴿الْقَرَارُ﴾ لهم قرارًا.

وهؤلاء لم يبدلوا نعمة الله كفرًا فقط، بل يقول عنهم ربنا عز وجل:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ (٣٠)

يعني: أنهم ﴿جَعَلُوا﴾ أيضًا ﴿لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ شركاء يعبدونهم ﴿لِيُضِلُّوا﴾ هم، ويضلوا غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وهو دين الإسلام. لا تهتم بهم، ولا تحزن عليهم، و﴿قُلْ﴾ لهم مهددًا ومخوفًا: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ بدنياكم، ولهوكم فيها ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ ونهايتكم ﴿إِلَى النَّارِ﴾ فيها تعذبون، وفي دركاتنا تخلصون.

وإذا كان هؤلاء قد انحرفوا وضلوا، فإن غيرهم يسعدون بتلقي أوامر الله وتنفيذها. يقول تبارك وتعالى لحبيه ﷺ:

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ (٣١)

أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِعِبَادِيَ﴾ الصالحين ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾:

﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بالمحافظة على أدائها كاملة، في أوقاتها.

﴿وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من أموال وجهد وعلم وغير ذلك ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ بما يناسب كل وقت وحال، وذلك أي: إقامتهم للصلاة وإنفاقهم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ﴾ عليهم ﴿يَوْمٌ﴾ أي: يوم القيامة الذي ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ﴾ ولا إنفاق، ولا صلاة، ولا أي عمل ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ أي: صداقات تنفع، ولا قرابات تشفع.

وهذا التهديد للكافرين، الذي قرأناه، وكذلك هذا التشريف للمؤمنين بالأوامر العلوية.
هذا وذاك، من الله تعالى الذي يقول عن نفسه:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

في هذه الآيات الكريمة يبين ربنا تبارك وتعالى أنه أنعم على عباده بسبعة أشياء، فيها الدلالة الكاملة - لمن أراد أن يفهم - على وحدانيته، وعلمه، وقدرته سبحانه وتعالى.

حيث يقول عز وجل: ﴿اللَّهُ﴾ ربكم هو ﴿الَّذِي﴾ اختص بهذه الأشياء، ويعلمها لا غيره، ويقدر عليها لا غيره، فوحدوه واعبدوه، وهذه الأشياء هي:

الأول: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ على هذا الشكل البديع النافع.

الثاني: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: السحاب ﴿مَاءً﴾ لكم على الأرض ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ الكثيرة المتنوعة ﴿رِزْقًا﴾ من الله ﴿لَكُمْ﴾.

الثالث: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ أي: السفن ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ﴾ فتتنفعون بها ﴿بِأَمْرِهِ﴾ وإذنه، بعد أن ألهمكم صنعها.

الرابع: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ تنفعون بها في الشرب، وسقي الزروع والثمار.
الخامس: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ يجريان دائماً في مصالح العباد، لا يهدآن ولا يقفان إلى آخر الدهر.

السادس: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ﴾ لتسكنوا فيه ﴿وَالنَّهَارَ﴾ لتبتغوا فيه من فضل الله، وهما يتعاقبان في نظام دقيق لا يختل.

السابع: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ على حسب مصالحكم، وهياً لكم كل ما تحتاجون إليه في حياتكم.

هذا، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: إن تحاولوا عد نعم الله إجمالاً ﴿لَا تَحْصُوهَا﴾ أبداً، فكيف لو حاولتم عد أنواعها تفصيلاً.

كل ذلك وقليل من عباد الله الشكور، كل ذلك وهناك مَنْ لا يوحده، ولا يعبد، ولا يطيعه.

حقًا: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ جنس الإنسان ﴿لَطَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ في الشدة: يشكو، وفي النعمة: يجمع ويمنع، والله لا يطيع ويخضع.

يقول ربنا لحبيبه ﷺ: يا محمد، قومك بدلوا نعمة الله كفرًا، ولم يشكروا الله على ما آتاهم من النعم الوفيرة. ذكرهم بإبراهيم الذي كان وجوده في هذه المنطقة سبب وجودهم، وسبيل إنعام الله عليهم؛ لعلهم يعتبرون فيؤمنون. قل لهم يا محمد:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٣٥)

أي: اذكر لقومك وذكرهم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ يوم أن ترك زوجته وولده، في هذا المكان الذي تقيمون فيه، وكان فقيرًا خاليًا من ألوان الحياة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ ذا أمن لأهله، ومن دخله ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ وأبعدني ﴿وَبَنِيَّ﴾ أولادي وذريتي من ﴿أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

ثم تحدث عن هذه الأصنام وخطورتها قائلاً:

﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣٦)

يعني: يا ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ﴾ أي: الأصنام ﴿أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ لذا سألتك العصمة، واستعذت بك من إضلالهن ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ واجتنبهن وابتعد عنهن، ولم يعبد سواك ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ وضل بسببهن أو بغير ذلك، فالأمر مفوض إليك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إن شئت هديته فأمن، فغفرت له ورحمته.

وبعد أن تحدث عن الأصنام واستعاذ بالله منها تحدث عن ذريته، وصار يدعو لهم حيث قال:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا

لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

أي: يا ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ﴾ بناءً على أمرك ووحيك ﴿مِّن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: بعض ذريتي ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ وهو: مكة ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ وقد أسكنتهم في هذا المكان، يا ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ عند بيتك المحرم، فوفقهم إلى ذلك، وأعانهم عليه.

يا رب، ولأن المكان خال موحش ﴿فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً﴾ قلوباً ﴿مِّن﴾ بعض ﴿النَّاسِ﴾ وهم المؤمنون ﴿تَهْوِي﴾ أي: تسرع وتطير شوقاً ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وإلى مكانهم هذا، حجاجاً، وعمازاً، وزواراً.

يا رب.. ولأن المكان بواد غير ذي زرع ﴿وَارْزُقْهُمْ﴾ بفضلك ﴿مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ التي يحتاجون إليها، ويعيشون بها.

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ النعمة، عندما تهوي إليهم هذه القلوب، ويرزقون من الثمرات. وبعد أن أسكنهم إبراهيم ﷺ في هذا المكان، وبعد أن دعا لهم بهذا الدعاء، أراد أن يعود - بأمر ربه - إلى الشام، تاركاً لهما.

قالت له زوجته: إلى من تركنا وتكلنا؟ قال: إلى الله.

قالت: الحمد لله، إذا لن يضيّعنا. وهنا: دعا ربه قائلاً:

﴿رَبَّنَا إِنَّا نَتَعَلَّمُ مَا تُخْفِي وَمَا نَعْلَمُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٣٨﴾

أي: قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّا نَتَعَلَّمُ﴾ أحوالنا، وما يصلحنا، وما يفسدنا، وأنت أرحم بنا، ﴿وَنَتَعَلَّمُ مَا تُخْفِي وَمَا نَعْلَمُ﴾ فلا حاجة بنا إلى الطلب؛ لأنه ﴿مَا يَخْفَى﴾ عليك ﴿مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك، وتخشعاً لعظمتك، وتذلاً لعزتك، وافتقاراً لما عندك فلا تكلنا إلى غيرك، ولا تترك أمورنا لسواك.

وسافر إبراهيم عليه السلام إلى الشام، وعاشت هاجر مع ولدها إسماعيل عليه السلام في هذا المكان، واستجاب الله دعاء إبراهيم وعمر المكان، وسيظل عامراً بأهله وحجابه، وعُماره، وزواره إلى آخر الزمان، ورزق الله الجميع من أطيب الثمرات. ومرت الأيام.. ورزق إبراهيم بعد ذلك من سارة بإسحق عليه السلام. وشكر إبراهيم ربه قائلاً:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٩)

أي: قال شاكرًا لربه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي﴾ أعطاني ﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾ ولدي ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾.

﴿إِنَّ رَبِّي﴾ كريم عظيم، وإنه ﴿لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ الذي سألته إياه حينما قلت: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصفات ١٠٠]. ثم دعا لنفسه وذريته قائلاً:

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ (٤١)
يعني: يا ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أي: مواظبًا عليها، محافظًا لها ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ كذلك. يا ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ هذا، وغيره.

نلاحظ أنه أخي المسلم: بماذا دعا..؟ إنه لم يدع ربه إلا بأن يجعله مقيمًا للصلاة!!
اللهم ارزقنا إجابة ما دعا إبراهيم يا رب..

ثم ختم دعاءه بالدعاء لنفسه، ولوالديه، وللمؤمنين قائلاً بما نتعلم منه الدعاء الطيب:

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤١)
أي: يا ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ مغفرة تنفعنا وننعم بها ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ الناس للحساب.

السورة تعطي جزءًا كبيرًا من اهتمامها للحديث عن:

﴿الَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

الذين قالوا ويقولون للدعاة إلى الله:

﴿لُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنُعَوِّدَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]. ﴿الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

وكل هؤلاء من الظالمين، فهي تتحدث عن الظالمين، وفعل الله بهم في يوم الحساب، الذي طلب فيه إبراهيم عليه السلام مغفرة ربه، يقول الله تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ ﴿٤٣﴾

يعني: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد، أو يا أيها العاقل، أو يا أيها المظلوم لا تحسبن ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه ﴿غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ بسبب إمهاله لهم، وتأخير عذابهم. فهو عز وجل ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: يؤخر عذابهم والانتقام منهم ﴿لِيَوْمٍ﴾ القيامة، وهو يوم ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ تفتح ولا تغلق من هول ما ترى.

ساعتها، يكونون خارجين من قبورهم ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين ﴿مُقْنِعِي﴾ رافعي ﴿رُءُوسِهِمْ﴾ إلى الأعلى ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا تنطبق على بعضها البعض جفونهم.

﴿وَرُءُوسُهُمْ﴾ تكون ﴿أَفْئِدَتُهُمْ﴾ أي: قلوبهم ﴿هَوَاءٌ﴾ كالهواء، خالية من العقول، أو الفهم؛ لفرعهم.

ثم يقول ربنا للنبي عليه الصلاة والسلام:

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبِّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعَ الرُّسُلَ أُولَئِكَ نَكُونُ أَقْسَمُ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ ﴿٤٤﴾

يعني: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ يا محمد، وخوفهم يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ وينزل بهم.

﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ساعتها ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا﴾ أي: أخر عذابنا ورددنا إلى الدنيا

مرة ثانية، وقتاً نستدرك فيه ما فاتنا، ونصلح فيه أخطاءنا، ونكفر فيه عن سيئاتنا، و﴿يُحِبُّ دَعْوَتَكَ﴾ فنؤمن بك، ونوحدك، ونعبدك، ونعمل بشريعتك، ﴿وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ الذين أرسلتهم لنا، ونسير على طريقتهم.

فيقال لهم توبيخاً وتبكيثاً: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾ وحلفتهم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ ذلك، وأنتم في الدنيا قائلين: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ عن الدنيا إلى الآخرة أي: لا بعث لكم بعد هذه الحياة الدنيا؟

ثم يقال لهم كذلك توبيخاً وتبكيثاً:

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ (٤٥)

أي: ﴿وَسَكَنْتُمْ﴾ أنتم في الدنيا ﴿فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ من قبلكم من الأمم السابقة.

﴿وَبَيَّنَّ لَكُمْ﴾ وظهر وعرفتم ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من الإهلاك نتيجة ظلمهم.

﴿و﴾ كذلك ﴿ضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ في القرآن، للعتة والاعتبار، ولكنكم لم تتعظوا، ولم تعتبروا، ولم تؤمنوا.

ثم يقول ربنا عن كفار مكة:

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٤٦)

يعني: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾ كفار مكة بالنبي ﷺ ﴿مَكْرُهُمْ﴾ المعروف؛ حيث أرادوا: قتله، أو حبسه، أو طرده وإخراجه من مكة.

﴿وَعِنْدَ اللَّهِ﴾ عز وجل جزاء ﴿مَكْرُهُمْ﴾ لا يفوتهم.

﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ هذا لا مثيل له، ولا أسوأ منه، حيث مكرهم ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ وهي جبال العقيدة الإسلامية الراسخة؛ بتخلي محمد عنها، وانصراف المؤمنين عن التمسك بها.

ثم يقول لحبيبه، ولكل داعية إلى الله مطمئنا، ومثبتا، ومبشرا بالنصر:

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفَ وَعْدِهِ ۚ رُسُلُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ٤٧﴾
 أي: اطمئن، وثق في نصر الله، يا كل داع إلى الله، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ أبداً، أن
 ﴿اللَّهَ﴾ تعالى ﴿مُخْلَفَ وَعْدِهِ﴾ بالنصر ﴿رُسُلُهُۥ﴾ ودعائه إلى دينه على أعدائهم:
 ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].
 حيث: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه أحد، ولا يفلت من عقابه أحد ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾
 لأوليائه من أعدائهم.

وهذا الانتقام من الظالمين.. إن لم يكن في الدنيا، فإنه يكون..

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَرِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ٤٨﴾ وَتَرَى
 الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ٤٩ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَغْشَى
 وُجُوهُهُمُ النَّارُ ٥٠﴾

يعني: يكون هذا الانتقام من الظالمين في يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ﴾ فيه،
 وتكون أرضاً ﴿عَرِ الْأَرْضِ﴾ التي نعرفها، وتبدل ﴿السَّمَوَاتُ﴾ فيه، وتكون سموات
 غير التي نعرفها.

﴿وَبَرَزُوا﴾ أي: خرجوا من قبورهم امتثالاً لأمر الله ﴿الْوَحِدِ الْقَهَّارِ﴾.
 ﴿وَتَرَى﴾ في ذلك اليوم ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ وهم ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مقيدين مع بعضهم البعض، أو مع
 شياطينهم، أو من أيديهم وأرجلهم ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي: السلاسل والقيود.
 وتكون ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ أي: ملابسهم ﴿مِّنْ قِطْرَانٍ﴾ يلدع جلودهم، ويساعد في
 إشعال النيران بأجسادهم.

﴿وَتَغْشَى وُجُوهُهُمُ﴾ التي هي أعز شيء وأهم شيء عندهم ﴿النَّارُ﴾.
 نعم، وبرزوا لله جميعاً من قبورهم..

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٥١﴾
 أي: يكون هذا الإخراج من القبور، والبعث ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ تعالى ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾

صالحة، أو شريرة ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ أي: جزاء ما كسبت وعملت في الدنيا، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب، كما أنه يتم بقدرة الله في لمح البصر، ولكنه طويل عسير على أهل الضلال. نجانا الله من أهواله، وخفف عنا من أثقاله.

ختاماً.. ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾

أي: ﴿هَذَا﴾ الكتاب الذي أنزلناه إليك يا محمد؛ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور.

﴿بَلَاغٌ﴾ وموعظة ﴿لِلنَّاسِ﴾ ينتفعون به.
﴿و﴾ أيضاً ﴿لِيُنذَرُوا بِهِ﴾ ويخافوا من عذاب الله.
﴿وَلِيَعْلَمُوا﴾ بما جاء فيه أنه ﴿أَنَّمَا هُوَ﴾ الله فقط ﴿إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ لا غيره يستحق أن يعبد.

﴿و﴾ كذلك ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ ويعتبر ويفيد مما جاء به، ويعمل به ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: أصحاب العقول الواعية الصافية.

